كنز من كنوز الجاحظ

أربع رسائل من رسائله

— ٢ —

تتمة ما كتب عن الرسالة الأولى

قلنا في آخر المقال السابق إنه لم يبق من الكلام على الرسالة الأولى وهي رسالة (المعاد والمعاش) الا الأبحاث اللفظية وما يتخللها من الفوائد اللغوية : من ذلك ألفاظ فصيحة وتعابير طريفة وقعت في تلك الرسالة يحسن اقتباسها والعمل على إحيائها :

قوله (ص ٣) (حُمَيّا الشَّرَه) و (حُمَيّا الحداثة) وهذا كما نقول سكر الشباب . وحميّا كلّ شيء سورته ونشاطه وحدّته .

وقوله (نسيجَ وحدك ، أوحديّاً في عصرك) . التعبير الأول مألوف معروف . أما قوله : أوحديّاً في عصرك فهو بمنزلة قولنا اليوم (فريد عصرك ونادرة زمانك) .

ومن ألطف تعابيره قوله يمدح (ابا الوليد) من حيث جعل عقله يتغلّب على هواه فقال : (حكّمت وكيل الله عندك — وهو عقلك — على هواك) والحسن فيه أنه جعل العقل وكيلاً عن الخالق عز وجل أقامه في البشر يطالبهم بالكف عن الشرّ والاقبال على الخير . ومثل هذا التعبير في الحسن تسمية القاضي الفاضل لحمام الزاجل بـ (ملائكة الملوك) فهي تهبط عليهم من وقت الى آخر بأخبار الأرض كما تهبط الملائكة على الأنبياء بأخبار السماء . على أن تعبير الجاحظ ربما كان أمثل وأفضل من الوجهة الدينية . وإن كان التعبيران سواسية من حيث حسن الصناعة اللفظية .

قوله ص ٤ هذا الشيء لا يكاد يخفى على الغُباة (فكيف يخفى على مثلي من المتصفحين) : تصفح الشيء تأمل فيه . وتصفح الوجوه تأمل فيها متفرّساً ليتعرّف أمرها . ويستوضح سرّها . وقد أطلق الجاحظ الوصف بـ (المتصفحين) على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلماء مريداً ما نريده اليوم بقولنا العلماء المدققين ، والعلماء المحققين ويحسن أن نستعمل (المتصفحين) في وصف علماء الآثار والتاريخ وطبائع البشر استرشاداً بقول الجاحظ نفسه في ص ٦ فقد أعاد استعمال (التصفح) قائلاً (ومعلوم أن طول دراسة الكتب والنظر فيها إنما هو تصفح عقول العالمين الخ) وهل يكون المؤرخ والاخباري والاجتماعي والعالم بالآثار الا متصفحاً لعقول البشر ، متأملاً في طبائع الأمم . ولفظ (معلوم) نستعمله اليوم بكثرة حتى أصبحنا نعدّه من التعابير اللينة التي يحسن اجتنابها . ومثله قولنا (لا يخفى عليك) و (لا يخفى أن الأمر كذا وكذا) .

ويستعمل الجاحظ في كلامه كثيراً فعل (الاجترار) فيقول (إن الله تعالى طبع خلقه على حبّ اجترار المنافع) ونحن نقول اجتلاب المنافع ، واكتساب المنافع . وابلغ منهما أن يقال : احتجان المنافع .

ويستعمل ايضاً وصف (مدخول القلب) في من يُضمر السوء والحقد لآخر : من (الدَخَل) وهو الخديعة والمكر (لا تتخذوا أيمانكم دَخلاً بينكم) .

وقوله ص ١٨ (أمرٌ لا بد منه ولا مزحل عنه) اي لا محيد عنه ولا منتدح عنه . ولا متسع للفرار والخلاص منه : يقال زَحلَ عن مكانه اذا تنحى عنه وتباعد قال الشاعر :

(ومقامٍ ضيق فرّجته بلسانٍ وبيان وجدل)
(لو يقوم الفيل أو فيّاله زلّ عن مثل مقامي وزَحل)

وصُحّف في بعض الكتب (زحل) الى (رحل) بالراء المهملة والأول أصوب .

وفي ص ٢٦ يذكر أن للسلامة في هذه الحياة الدنيا قوانين يجب مراعاتها ولا عبرة بسلامةٍ تأتي بعد مغامرة أو على سبيل الاتفاق . ثم قال (وما كثر مجيء السلامات إلاّ لمن أتى الأمور من وجوهها وانما الأشياء بعوامّها) قوله (عوامها) جمع عامة اي الحالة العامة الغالبة . فالجاحظ يقول ان العبرة في الأشياء بما وقع منها في أعمّ أحوالها . وعبّر عن ذلك بقوله (الأشياء بعوامها) وهذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل ما نقول اليوم (العبرة بالأعم الأغلب) ثم قال بعد ذلك (فلا تكونن لشيء مما في يدك أشد ضناً . ولا عليه أشد حدَباً) . حدَب عليه تعطف عليه . وفلان حدِبٌ على ذوي قرابته (بكسر الدال) أي شديد العطف عليهم . وقد كثر استعمال فعل (الحدَب) بين كتاب العصر حتى كأنهم استوحوه من استعمال الجاحظ له .

* * *

وقد وقع في رسالة (المعاد والمعاش) أغلاط هفا بها قلم الناسخ أو سها عنها ذهن الطابع من ذلك :

قوله ص ٣ (أخرجك (أي عقلك) سليمَ الدين . وافر المروءة . نقيَّ العرض . كثير البرّ . آمن الجدَة) (الجدَة) سعة الرزق ويقال أمِنَ الأسدَ إذا سلم منه : فكيف تكون سعة الرزق آمنة . ومن أيّ شيء تخاف حتى تأمن ؟ . فلعل الصواب (أمين النجدة) اي جعلك عقلك مأموناً موثوقاً في نفوس المستنجدين بك . فلا تخذلهم ولا تتخلى عن نصرتهم . وإذ ذاك تتناسب فقرة « أمين النجدة » والفقر التي تقدمتها . أو يقال إن معنى «آمن الجدة» أنّ رزقك آمنٌ من الزوال ، ونعمتك من النقصان : لشكرك الله عليها مذ وفقك الى إنفاقها في عمل البر واسداء الجميل . واصطناع المعروف .

وقوله ص ٣ (فلما محضتك الخبرة) محضه الودّ أخلصه . وصدَق فيه . والخبرة الاختبار . ولعل صوابه أن يكون أحد فعلين إما (مخضتك) بالخاء والضاد المعجمتين من مخض اللبن استخرج زبده . أي إن الاختبار أعثرنا على ما فيك من الكفاية والنجدة والنبل وسائر خصال الخير – وإما ان يكون (محصتك) اي بالحاء والصاد المهملتين : من تمحيص الذهب وهو تخليصه من الشوائب . وكذلك الاختبار فانه يُزيل عن الممدوح ما يُظنُّ أنه فيه من الشوائب والنقائص .

قوله ص ٧ يعيب الكتاب الذين يذكرون الأشياء والوقائع من دون أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يعللوها او يبينوا أسبابها : (فهم لم يعدوا في ذلك منزلة الضنّ بها) : (يعدوا) أي يتخطوا ويتجاوزوا . والضنّ (بالضاد) بمعنى البخل . ولعل صوابه (الظنّ) بالظاء المعجمة . اي ان هؤلاء الكتاب في سردهم الوقائع من دون أن يذكروا تعليلاً لها إنما هم يظنونها ظناً . ولا يعلمونها يقيناً . ولا معنى لقولنا (انما هم يبخلون بها) . أو يأول بأن الكتاب الذين لا يعللون الأشياء انما هم يحرصون على تدوينها بخلاً بها عن الضياع . أو انهم يبخلون بها على غيرهم لئلا يفهمها . ويستفيد منها . وكله تكلف ما عدا الذي قلناه أولاً .

قوله ص ٧ (فألفت لك كتابي هذا اليك) (لك) اي لأجلك فلا حاجة لقوله (اليك) . اذ ليس المراد بالكتاب الألوكة والرسالة التي يقال فيها بعثت بكتابي أو رسالتي أو ألوكتي إليك .

وقوله : حتى تستمال بذلك قلوب الناس (وتؤنس بعد الوحشة وتسكن بعد النفار) صوابه (وتأنس) .

قوله ص ٨ في وصف كتابه الذي ألفه لأبي الوليد وقد بين فيه العلل وكشف عن الأسباب . وقد أطال في وصف ما توخاه فيه من الإجادة والإحكام ثم قال : فإن أحسنتُ في ذلك (كان عمرك — وان قصُرتْ أيامه — طويلاً . وفارقتَ ما لا بد لك من فراقه محموداً إن شاء الله) لعل صوابه : كان عمري أنا وفارقتُ ما لا بدّ لي من فراقه أنا : على معنى أن الناس بعد موت الجاحظ يذكرونه ويُثنون عليه . فهو طويل العمر بالذكر والثناء . وان كان قصيره بالأيام والسنين ثم إذا فارق الناس بالموت فارقهم محموداً مثنياً عليه بما اصطنعه من الابداع في ذلك الكتاب . اما اذا كان الأصل هو الصواب وان الجاحظ يخاطب أبا الوليد بقوله : (وان قصُرتْ أيام عمرك) فيكون قد أراد بمضمون كلامه ما أراده الشاعر بقوله :

(ومن دَرَى أخبار من قبله أضاف أعماراً الى عمره)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن هل يحسن ان يفجأ الجاحظ (ابا الوليد) بمثل هذا الخطاب الذي يذكّره بقصر ايام عمره . واين هو من بداعة الاستدراك في قول القائل :

(إنّ الثمانين وبُلّغتها قد أحوجتْ سمعي الى ترجمان)

وقوله في ص ١٠ (ولم تتلقّنه بقوة) ضمير تتلقنه يرجع الى الغِنَى . والتلقين إنما يستعمل في الألفاظ والأقوال . والغِنى وبسطة العيش ليسا مما يُلقَّن تلقيناً . فصوابه (ولم تتلقّه) من التلقي . أو الأصوب (ولم تَبلُغْه) من البلوغ .

وقوله في ص ١٣ يجب أن يأخذ الوالي رعيته بالرغبة أو الرهبة ولا يحسبن أن احداً من دون رهبة أو رغبة (يصلح له ضميره أو يصحّ له) الأولى في هذا المقام ان تكون (ينصح له) مكان (يصح له) الا اذا كان تعبير (صحّ فلان لفلان) بمعنى أخلص له — معهوداً في زمنهم .

وقوله ص ١٧ (التواني يوجب التضييع . والجدّ يوجب رخاء الأعمال) (الرخاء) في اللغة سعة العيش . ولا معنى له هنا . فلعل صوابه (وفاء الأعمال) اي تمامها واكتمالها . يقال : وفى الدرهمُ والكيلُ وريشُ جناح الطائر — كل ذلك إذا بلغ حدّه من الكمال والتمام .

قوله ص ٢١ يصف الخصال التي يحسن بالمرء ان يستظهر بها على عدوّه (وأشرفها أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى) فقوله تأخذ عليه بالفضل تعبير غير معهود فلعل (عليه) محرف من (علّته) اي سوء حالته المعاشية . أو هو محرف من (عيلته) بمعنى فقره وخصاصته . وفعل (الأخذ) هنا بمعنى المعاملة : ألا تسمعهم يقولون : أخذه باللين والرفق . وأخذه بالشدة والعنف . ويكون معنى الجملة هنا أن تعامل فقر عدوك وخصاصته ورقة حاله بفضلك وإحسانك . وقد تفنن الجاحظ في وصف طرائق الاستظهار على العدوّ وختمها بقوله (ولستَ مستظهراً على عدوك بمثل طهارتك من الأدناس وبراءتك من المعايب) ومما قاله الجاحظ نظمه الشاعر بقوله :

(إذا ما رمتَ إرغام الأعادي بلا سيفٍ يُسَلُّ ولا سنان)
(فزد في مكرماتك فهي أعدى على الأعداء من نُوَبِ الزمان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله ص ٢٢ يصف الانتفاع بالأصحاب والأعوان وانهم اجناس : لا يصلح أحدهم لما يصلح له الآخر من الخدم . وسدّ الثلم . والقيام بالمهمات قال : وقد قيل في الحكمة : (إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف) ظن الناسخ أو الطابع (ان الخلال) جمع خَلة بمعنى الخصلة فقال (تنفع) بتاء المضارعة وصوابه (ينفع) بالياء لرجوع ضميره الى (الخلال) وهو لفظٌ مفرد بمعنى العود الذي يُتخلَّل به الأسنان من بقايا الطعام : فللسيف الصقيل موضع . ولهذا العود الضئيل موضع . لا يصلح أحدهما أن يقوم فيه . مقام أخيه . على أن إرادة (الخلال) بمعنى الخصال ممكنة على حدّ ما ورد في الاثر (يُنال باللطف ما لا ينال بالعنف) غير أن المعنى الأول أبلغ وأقوم .

قوله في ص ٢٧ (فان اعتقاده (أي اعتقاد الصديق الوفي) أنفسُ العقدة) ومعنى اعتقاده اقتناؤه واتخاذُه عُقدَةً اي قنية : فالعقدة والقنية ما يُقتنى من الضياع والعقارات . وجمع العقدة عُقَدٌ فقوله (أنفس العقدَة) صوابه (أنفس العقد) .

قوله في ص ٣٨ يذكر أن اللئيم إذا اساءَ اليه من تحته من الضعفاء غضب واستطال . وان أساءَ اليه من فوقه من الأقوياء (أغضى وسمّى ذلك حُزناً) صوابه (حَزْماً) بالميم .

قوله في ص ٣٠ ينصح للمرء ان لا يكثر من معاتبة صديقه ثم قال (عاتبه في ما تشترك كان في نفعه وضرّه . وذلك في الكَهنات) (الكَهنات) جمع كَهنة ويكنى بها عن توافه الأمور ومحقراتها . ولا أظن الجاحظ يعني هذا بدليل قوله بعد (وتجافَ للصديق عن بعض غفلاته) فكيف يأمره بمعاتبته في توافه الأمور ثم يأمره بمسامحته في بعض غفلاته . فالكَهنات محرَّفة عن (المهمات) أي انما تصلح معاتبتك لصديقك في المهمات التي تشترك كان في نفعها وضرها .

وقوله يوصي بأن لا يتذلّل المرءُ لصديقٍ له رفعته الدنيا الى المناصب ولا يرجحه (على نظرائه في الحفظ والإكرام) لعل صواب (الحفظ) (الكَفد) وهو الإسراع في الخدمة ومنه الحفيد : أي عامل صديقك بعد وزارته كما كنتَ تعامله قبلها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقوله ص ٣٢ (فلا تستقبلها بالتضجّع وتغبين الرأي) أي لا تستقبل الشدائد إذا نزلت بك بالتضجع : وهو القعود عنها والاستسلام لها . والتقصير في تدارکها . وقوله (تغبين الرأي) لا معنى له وصوابه (تفييل الرأي) وهو ضعفه وعجزه ومنه قولهم فلان فائل الرأي .

وقوله ص ٨٤ يوصي أن لا يجعل المرء أمواله كلها في عقارٍ واحد ولا في حيزٍ واحد (وقد قال بعض الحكماء فرّقوا المنية واطلبوا الأرباح بكل شِعب) قوله (المنية) خطأ صوابه القنية .

وقال بعد ذلك في أن من سياسة الرعية العفو عنهم أحياناً ثم قال في تحديد معنى العفو (والعفو ما بُلغ به الاستصلاح واكتُفي به من البسط) يريد أن حدّ العفو هو القدر الذي يُستصلح به العاصي ويُستغني به عن عقوبته . فكلمة (البسط) محرّفة عن كلمة أُخرى بمعنى العقوبة . أو أنه اطلق لفظ (البسط) مريداً به بسط اليد بالعقوبة . يقول العرب (بسط الوالي يده على فلان) و (بسط الوالي العذاب على بني فلان) فالبسط يفهم منه معنى الايقاع والتنكيل والعقوبة . وللبسط معنى مولّد ينتهي إلى معنى العقوبة . فإذا قال الوالي لأعوانه : ابسطوا فلاناً المجرم كان معناه ابسطوا له بساطاً ألقوه عليه واجلدوه . أو ابسطوه هو نفسه على الأرض واجلدوه . و (البسط) بهذا المعنى مستعملٌ في اللغة العراقية الدارجة اليوم وكأن العراقيين استوحوها من استعمال أديبهم الجاحظ لها . والكلام على الرسالة الثانية من رسائل الجاحظ يأتي في

العدد الآتي .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net